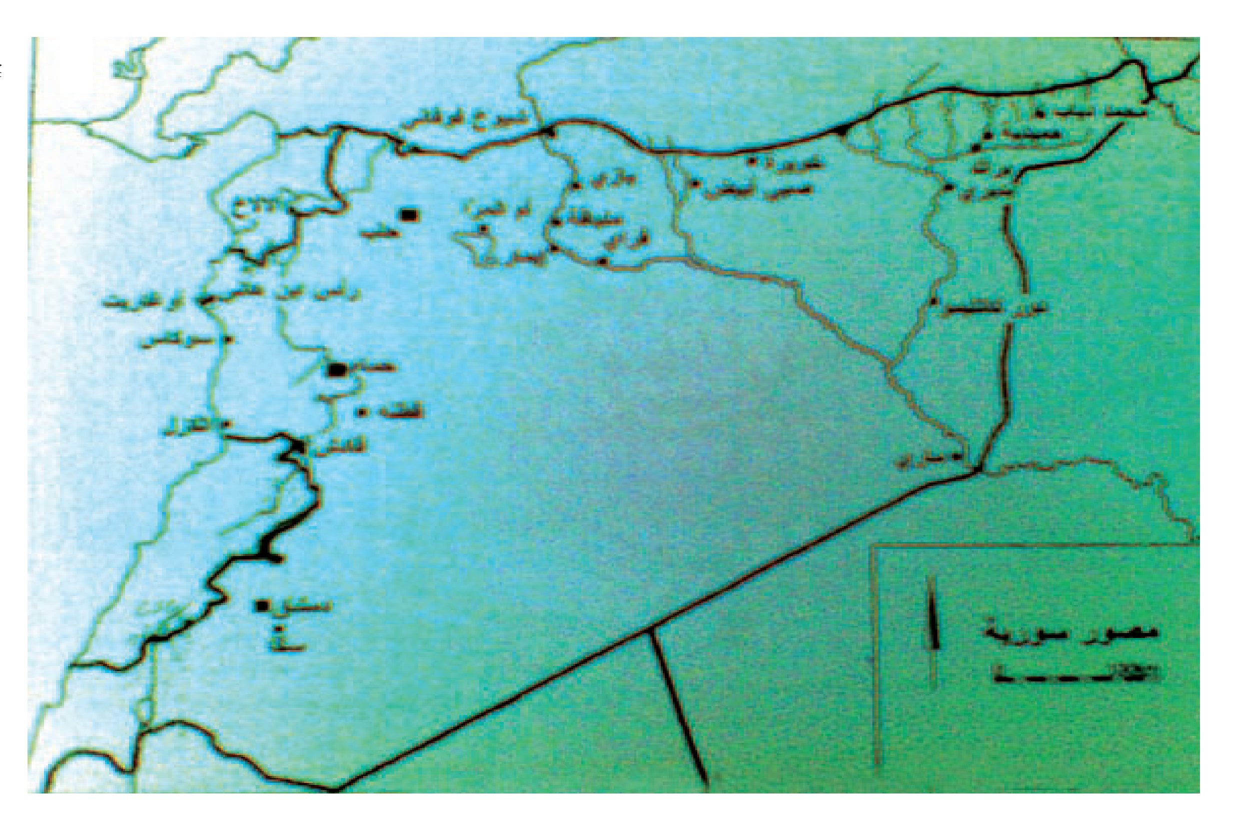
ممالك سوريا القديمة

د. تغريد شعبان

الإشراف الطباعي: أنس الحسن


مصور سورية

تقع سوريا في مركز الشرق الأدنى الذي يشكل قلب العالم القديم لذلك فإنها كانت وما زالت جسراً حضارياً هاماً بين الشرق والغرب.

ظهر اسم سوريا لأول مرة في الأدب الأوغاريتي في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد باسم شرين، وفي العبرية أطلق اسم سيريون على المنطقة الواقعة إلى الشرق من لبنان.

أما اسم سوريا (Syria) فقد ذكر لأول مرة من قبل اليونانيين، إذ استخدمها المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت للدلالة على المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط غرباً والبادية والفرات شرقاً، وبين جبال طوروس شمالاً وسيناء جنوباً. إلا أن أصل الكلمة سور(ي) و(يا) هو بلا شك أكادي آشوري، وإذا كان الأصل الآشوري له بعد قلب الشين سيناً هو الأكثر منطقية أي سوريا أو شوريا، إلا أن هناك من يرى أن أصل هذه الكلمة تعود إلى اسم مدينة صور (سور) الساحلية اللبنانية. أما المؤرخون العرب فقد أطلقوا عليها اسم بلاد الشام وذلك لوقوعها إلى الشمال من

الحجاز، وبالمقابل أطلقوا على البلاد الواقعة إلى يمينه، أي جنوبه، اسم بلاد اليمن.

احتلت سوريا مكانة هامة متميزة عبر العصور، فعلى أرضها امتزجت العديد من الحضارات كالبابلية والآشورية والمصرية والحثية واليونانية والرومانية.... الخ، وهو ما يظهر واضحاً من خلال المخلفات الأثرية المعمارية والفنية والكتابية وغيرها كثير.

إن نهر الفرات الذي يصل بين الأناضول من جهة وسوريا والعراق من جهة أخرى، جعل من شمال سوريا أو ما يسمى بالجزيرة السورية، مركز الشرق باتجاه الغرب، وفيه بدأت أولى التجارب الزراعية والتجارية في الألف التاسع قبل الميلاد. إلا أن هذا المركز السوري الهام كونه صلة وصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، لم يمنع بعض الباحثين من اعتباره مجرد أرض عبور للحضارات وليس مركزاً لها. لكن الاكتشافات الهامة التي تمخضت عنها الأرض السورية بدءاً من أوائل القرن العشرين، دلت دلالة أكيدة لا ريب فيها أن هذه المنطقة مع بقية أنحاء الأرض السورية مهد

الحضارات؛ وأن الماضي السوري حافل بالعديد من ممالك المدن التي نافست كبرى الإمبراطوريات العالمية آنذاك كالبابلية والمصرية والحثية وغيرها.

إن توزع المدن والدويلات، جعل من سوريا أرض لقاء وانفتاح، إنها تشكل الخزان البشري للشرق فهي أصل الأكاديين والأموريين والآراميين، وهي التي نقلت معارف التقنية الكتابية والحسابية والحرفية إلى الغرب، ومن صومعاتها زودت العالم القديم بالحبوب، ومن جبالها بالأخشاب. أما الحدث الأهم والأبرز فكان اختراعها للأبجدية التي فتحت أمام العالم أجمع سبل العلم والمعرفة ويسرت انتقالها ونشرها.

ولم يكن الفكر التوحيدي، بعيد عنها إذ أنها الأرض التي دعت إلى الإيمان بإله واحد، كرد فعل على كثرةٍ الآلهة وتعددها، حيث كان هناك إله لكل شيء تقريباً؛ فهناك إله للسماء وآخر للأرض وثالث للبحر ورابع للرياح وخامس للحب...الخ.

ولذلك ولأهمية هذه المنطقة محلياً وعالمياً، بدأت البعثات الأثرية الأجنبية تجري استكشافاتها عليها منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. ونتيجة لهذه الأبحاث تبين للعلماء والمختصون أن تاريخ سوريا الحضاري يعود إلى آلاف السنين، بدءاً من العصر الحجري القديم الأدنى الذي وجدت آثاره في أوغاريت (رأس شمرا)، وفي كهوف عدلون بين مدن صيدا وصور والزطية (شمال غرب بحرية طبرية).

وحرصاً منا على تعريف أبنائنا بماضينا الحضاري فإننا حرصنا على استعراض أهم الممالك التي قامت على أرضنا السورية بدءاً من الألف الثالث وحتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد .

مملكة إيبلا (تل مرديخ)

تقع مدينة إيبلا القديمة أو تل مرديخ كما تعرف حالياً، على بعد نحو ٥٥كم جنوب غرب حلب بالقرب من بلدة سراقب. وقد لفت هذا التل انتباه علماء الآثار بحجمه الكبير وببعض اللقى الأثرية الملتقطة من سطحه. وخير مثالٍ على ذلك قطع فخارية وحوض

حجري قديم نحتت عليه أشكال نافرة لأشخاص وأسود عثر عليه فلاح من قرية تل مرديخ عام ١٩٥٥م.



مملكة إيبلا

ولذلك بدأت بعثة أثرية إيطالية التنقيب فيه عام ١٩٦٤م برئاسة الأستاذ باولو ماتييه. واستمرت هذه الحفريات الأثرية في التل أربعة أعوام دون أن تتمكن من الوصول إلى أية نتائج ذات أهمية تذكر. إلا أنه تم العثور في عام ١٩٦٨م على جذع تمثالٍ لرجل منحوت

من حجر الصوان الأسود (البازلت) فُقد رأسه وجزء من أحد كتفيه. يحمل نقشاً ذكر فيه اسم الموقع القديم لتل مرديخ أي إيبلا مرتين. وهذا النقش هو عبارة عن نقش نذري أمر بكتابته الملك أبيط ليم، يذكر فيه تقديم نذر للإلهة عشتار، إلهة الخصب والحب والحرب. وبناءً على هذا الاكتشاف الهام تأكد المنقبون الإيطاليون أنهم يبحثون في موقع مدينة إيبلا التي لم يكونوا يعرفونها إلا من خلال بعض النصوص الرافدية التي ذكرتها عدة مرات دون أن تحدد المكان بشكل دقيق.

ولم تكن النتائج في مواسم التنقيب التالية أقل قيمةً، ففي الحفريات التي جرت في الأعوام١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٦م تم الكشف عن أقسام هامة من القصر الملكي، كان من أبرزها الكشف عن الأرشيف، الذي لم يدع مجالاً للشك بأن هذا التل كان مسرحاً لأقدم حضارة مدنية سورية وهي الحضارة الإيبلاوية.

بلغ مجموع الرقم المكتشفة، نحو سبعة عشر ألفاً وخمسمائة رقيم وكسرة طينية مكتوبة، تشكل بمجموعها الأرشيف الملكي الإيبلاوي. ونود الإشارة

إلى أنه تم العثور على هذه الرقم في عدة حجرات من القصر الملكي وليست في مكان واحد، وإلى أنها، أي الرقم، أقدم وثائق رسمية لدولة، ظهرت في العالم.

والرُقم هي عبارة عن ألواح طينية بعضها صغير الحجم لا يتجاوز طوله بضعة سنتيمترات، والبعض الآخر كبير نسبياً يصل إلى حوالي ٤٠سم. وكانت الكتابة على هذه الرقم تتم على الوجهين بالخط المسماري واللغة الإيبلاوية.



الرقم المسمارية عند الكشف عنها في أرض المكتبة

ويختلف شكل الألواح المكتشفة حسب نوع المعلومة التي يتضمنها، وهذا ما يسهل عمل منظم الأرشيف ويجعله قادراً على معرفة محتواه من مجرد النظر إليه. وكمثالٍ على ذلك نذكر أن بعضها مربع الشكل بوجه مسطحٍ وخلف محدب، مع زوايا حادة وهي تستخدم لتسجيل الصادرات الشهرية من المنسوجات؛ وبعضها الآخر مستطيلة بتحدب غير منتظم في الخلف وزوايا ملساء تستخدم لتسجيل الواردات من الذهب والفضة. كما أن هناك كثيرٌ من الرقم بيضاوية الشكل صغيرة الحجم كتبت عليها مواضيع مختلفة.

لقد وضع هذا الكشف الهام أمام الباحثين في التاريخ واللغات معطيات جديدة عن حضارة سوريا في الألف الثالث قبل الميلاد، غيرت الكثير من النظريات التي كانت شائعة قبله، وأفسحت المجال ليبدأ عهدٍ جديد في دراسةِ حضارات الشرق الأدنى القديم عامةً والسورية خاصةً. فالنظرة السابقة التي كانت سائدة تعتبر أن سوريا لم تكن في تاريخها القديم سوى منطقة نزاع دائم بين الممالك والإمبراطوريات الكبرى، وأنه لم تقم فيها أية حضارة متميزة قبل نشوء الممالك الأمورية

في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا طبعاً ما فندته اكتشافات إيبلا التي أثبتت أن سوريا كانت منذ النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل، مركزاً لمملكة قوية امتد نفوذها السياسي والاقتصادي والحضاري على شمال سوريا والمناطق المجاورة، من حماة وحمص جنوباً حتى كركميش وحران وجبال طوروس شمالاً، ومن الفرات شرقاً حتى سهل العمق غرباً. وما يثبت ذلك أننا كثيراً ما نقرأ في النصوص عن قدوم ملوك المدن المجاورة لإيبلا لأداء يمين الولاء لملكها في معبد الإله حدد.

إن دراستنا للحضارة الإيبلاوية تعتمد بشكل أساسي على الرقم المسمارية، التي تحتوي على قوائم معجمية أي قواميس وعلى معلومات هامة اقتصادية وإدارية وقضائية ودينية.

ونتبين من هذه القوائم المعجمية وجود مدارس في إيبلا لتعليم الكتابة واللغة السومرية، ومراتب متعددة للعاملين فيها حيث يذكر الكاتب اسمه واسم معلمه واسم المشرف الرئيس على المدرسة.

ومعلوماتنا عن إيبلا لا تقتصر على ما ورد في الرقم على الرغم من أهميتها الكبيرة، وإنما تعتمد كذلك على المكتشفات الأثرية التي تؤكد في معظم الأحيان ما ورد فيها.

وبالتأكيد يمكن القول أن إيبلا التي تظهر من خلال النصوص كمملكة قوية ومزدهرة في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، تعود جذور حضارتها إلى فترات أكثر قدماً، فلا بد أن الازدهار الكبير الذي بلغته في هذه المرحلة كان عبارة عن تتويج لمرحلة طويلة من الزمن قد تعود إلى بدايات الألف الرابع قبل الميلاد.

مع قلة المعلومات السياسية الموجودة في الألواح المكتشفة، نستطيع أن نؤكد أن علاقات إيبلا مع جيرانها كانت جيدة في معظم الأحيان، إذ تم العثور على عشر معاهدات دولية في الأرشيف، أهمها المعاهدة مع مدينة أبارسال التي يفترض العالم «سولبرجر» أنها كانت مدينة تقع بالقرب من إيبلا وقد نظمت هذه المعاهدة العلاقات التجارية بين الطرفين.



رقيم مسماري نقشت عليه بنود المعاهدة بين إيبلا واربارسال

كما أنه في عام ١٩٧٧م تم اكتشاف بعض القطع الأثرية التي تثبت وجود علاقات سياسية وتجارية جيدة بين المملكة الإيبلاوية والإمبراطورية الفرعونية. ففي القسم الإداري من القصر الملكي وجدت قطعتان من الديوريت عليهما كتابة منقوشة يرد فيها اسم خفرع أحد فراعنة الأسرة الرابعة وباني الهرم الثاني (٢٥١٠-٢٤٨٥ق.م) وكذلك غطاء مدور من الألباستر، يحمل اسم بيبي الأول (٢٢٦٨-٢٢٢٨) وهو الفرعون الثالث من الأسرة السادسة.

ويذكر اللغويون الإيطاليون الذين تولوا ترجمة نصوص إيبلا ونشرها، وجود علاقات مميزة مع مملكة ماري عاصمة الفرات الأوسط، وأن هذه المملكة دفعت الجزية لإيبلا لفترة من الزمن. وهناك بعض المدن التي دفعت الجزية كذلك مثل، حران ودوب وأيتوم وأوروسوم، وجميعها تقع في سهول سوريا الفراتية.

كانت مملكة إيبلا في عصر المحفوظات الملكية مملكة مستقلة مزدهرة، يحكمها ملك يشكل رأس الدولة وكان مسؤولاً عن السياسة الداخلية والخارجية ويشرف على الأعمال الإدارية والقضائية. وكان إلى جانب الملك مجلس يمكن تسميته بمجلس الشيوخ مهمته مراقبة الملك وممارساته للسلطة. وكان له أثر بارز في إدارة شؤون الدولة كما يظهر من النصوص المختلفة، كما كان للملكة دوراً مهماً في حياة إيبلا، ولاسيما الاقتصادية منها، إذ كانت مصانع الغزل والنسيج تحت إشرافها وكذلك تنظيم الزراعة وعائداتها، وأهمها الزيتون وزيت الزيتون.

كانت إدارة المملكة رسمياً بيد الملك ولكنها في الواقع كانت تدار من قبل شخص آخر، تحت تصرفه عدد كبير

من الموظفين، وتذكر إحدى النصوص أن العدد الكامل لموظفي الدولة وصل إلى ١١٧٠٠ موظف، منهم ٤٧٠٠ كانوا يعملون في قصر «السيد» و٧٠٠٠ في المقاطعات المختلفة.

ويلي السيد في المرتبة مسؤول يدعى «لوغال»، وهذه التسمية معروفة في شرق الهلال الخصيب بمعنى الملك، في حين تدل في إيبلا على الوالي أو حاكم المقاطعة، وتذكر النصوص أربعة عشر واليًا. وهذا يعني أن إبلا كانت مقسمة إلى أربعة عشر مقاطعة، ولم يكن حكام المقاطعات مرتبطين بمنصب الملك أو السيد، بل كانوا يبقون في مناصبهم مدى الحياة، كما كان بعض الملوك حكاماً في المقاطعات قبل أن يعتلوا العرش.

ترافقت الأهمية السياسية للمملكة الإيبلاوية طرداً مع مكانتها الاقتصادية. وتبين لنا النصوص أن الزراعة كانت من عناصر القوة الإيبلاوية، وخاصةً زراعة الشعير والزيتون والكرمة. وتعد هذه النصوص الأولى من نوعها في التاريخ التي تتحدث عن زراعة الزيتون وإنتاج الزيت والخمور.

كما كانت الصناعة من أهم دعائم ازدهارها وثرائها لاسيما الصناعة النسيجية، التي كانت تعتمد بشكل رئيسي على الإنتاج المحلي من صوف الأغنام، وعلى الكتان الذي كان يزرع في إيبلا. وكانت تجري صناعتهما وتحويلهما إلى أنسجة متنوعة في بيت الصوف التابع للقصر الملكي. وقد ورثت، في العصور اللاحقة، ممالك ومدن سورية، التقاليد الإيبلاوية في صنع الأنسجة، مثل مملكة يمحاض في الألف الثاني قبل الميلاد، والمدن الفينيقية في الألف الأول قبل الميلاد، التي اشتهرت بصناعة الأنسجة الملونة بصباغ الأحمر الأرجواني.

كما أبدع الحرفيون الإيبلاويون في صناعة المفروشات الخشبية وزخرفتها وتطعيمها. ولذلك عمد ملوك إيبلا إلى إرسال بعض هذه القطع الفنية إلى ملوك البلدان الصديقة. وقد عثر على قطع خشبية متفحمة من أثاث محطم كان يزين أبواب ونوافذ وجدران القصر، مزخرفة بأشكال مختلفة إنسانية وحيوانية، تمثل ملوكاً وأمراء ومشاهد حربية وصراعاً بين حيوانات. كما تم العثور على منضدة تتألف من ثلاثة ألواح يصل بينها مسامير عظمية، ويحيط بها إطار مزين بأنصاف دوائر

خشبية وعظمية مثبتة بمسامير من العظم والخشب. وزخرفت قوائم المنضدة بأشكال حيوانية ومشاهد ميثولوجية.



خشب متفحم، يظهر عليه فن التطعيم

ومما ساعد على ازدهار هذه الصناعة وتقدمها، قرب إيبلا من مصادر الأخشاب في غابات الجبال الساحلية السورية. وقد أحسن الفنانون الإيبلاويون، استغلال هذا الأمر، فأبدعوا في صنع التماثيل الخشبية الصغيرة. إذ عثر ضمن أنقاض القصر على تمثال صغير من الخشب المتفحم نفذ بدقة ومهارة

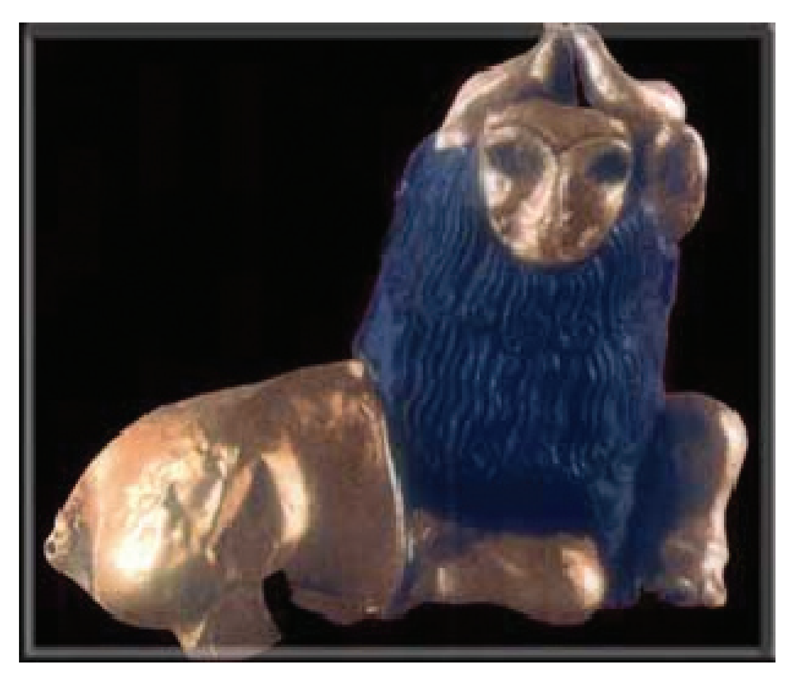
تظهران بكل وضوح خاصة على الثوب المزركش والمزين بأشكال هندسية فنية جميلة. جسد التمثال شخصاً يعتمر عمامة، واقفاً يحمل فأساً بيده اليسرى التي يضمها إلى صدره، ويرتدي ثوباً طويلاً يغطي كامل جسمه باستثناء كتفه الأيمن.



تمثال خشبي متفحم

وزيادةً في إثبات مهارة الفنان الإيبلاوي عمد إلى تطعيم التماثيل الخشبية بالمعادن الثمينة والأحجار الكريمة. ومن أشهر هذه القطع الفنية تمثال لثور بري برأس إنسان (ارتفاعه ٤،٢ سم وطوله ٥سم وعمقه ١،٨سم)، صنع جسمه من الخشب وغطي بصفائح من

الذهب، أما شعر عنقه الذي يتدلى على شكل خصلات معقوفة في نهايتها فغطي بالستياتيت (حجر الطلق). صور الثور مضطجعاً نحو اليمين وملتفتاً برأسه نحو الناظر، وهو يضع قائمته اليمنى الأمامية تحته بينما يمد قائمته اليسرى أمامه.

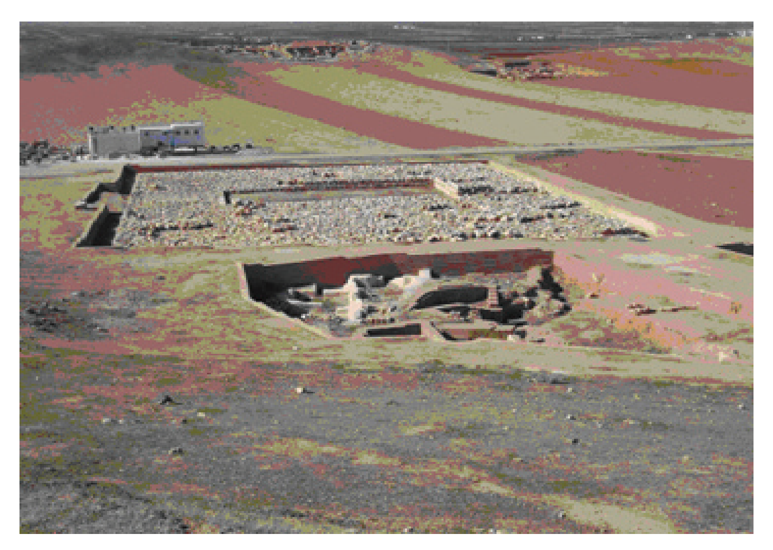


ثور بري برأس إنسان

يرى باولو ماتييه مكتشف هذه الحضارة أن القصر الملكي دُمر نحو (٢٢٥٠-٢٣٠٠ق.م) على يد الملك الأكادي «نارام سين»، بينما يرى الباحث اللغوي ألفونسو آركي أن المسؤول المحتمل عن الدمار هو مدينة ماري. والمهم بالنتيجة أن إيبلا زالت كقوة سياسية فاعلة في هذه المرحلة وستنتظر فترة طويلة من الزمن قبل أن تتمكن من استعادة مكانتها.

بينت الحفريات أن هناك قصراً ملكياً آخر تم بناءه في إيبلا مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وإلى هذا العصر يعود عدد كبير من اللقى الأثرية والتماثيل والمعابد، وسور المدينة والتحصينات والبوابات وأهمها البوابة الجنوبية.

بنيت المعابد في هذه الفترة حول الأكروبول «قلعة المدينة»، وأهمها معبد الإلهة عشتار وهو نموذج من المعابد المستطيلة ذات الأروقة الذي اشتهرت به سوريا في العصر البرونزي. وعثر في داخله على جرن بازلتي معد للوضوء، وتظهر على ثلاثة جوانب منه منحوتات نافرة لرجال وحيوانات، ترمز على الأرجح للإخصاب.



معبد عشتار في المدينة السفلى

وقد انتهت هذه المرحلة بتدمير المدينة على يد المملكة الحثية حوالي (١٦٠٠-١٦٥٠ق.م)، محولةً إياها من مملكة قوية ذات صولة وجولة إلى قرية صغيرة، توسعت قليلاً في العصر الآرامي ثم الفارسي والهلنستي.

إن عظمة إبلا لا تكمن في عمارتها وفنونها المتميزة فقط، بل أيضاً في محفوظاتها الوحيدة من نوعها من الألف الثالث قبل الميلاد. ويعد ظهور هذا الكنز الكتابي الهام في سوريا ثورة وانقلاب كبيرين في مفاهيم التاريخ القديم.



جرن للوضوء من معبد عشتار

الممالك الأمورية في النصف الأول من الألف الثاني

قدم الأمويون إلى سوريا في منتصف الألف الثالث قبل اَلميلاد مع الكنعانيين من شبه الجزيرة العربية. وغير معروف الاسم الذي كان يطلق عليهم قبل قدومهم، إذ أن اسم أو لقب الأموريون أطلقه عليهم الأكاديون سكان الشرق، والمقصود بهذه الكلمة «الأموريون» سكان الغرب. وأطلق البابليون اسم أمورو على كل الإقليم السوري حتى أنهم سموا البحر المتوسط «بحر أمورو العظيم». أما السومريون فأطلقوا عليهم اسم «مارتو» ووصفوهم بالبداوة لأنهم لم يكونوا يعرفون زراعة القمح.

وعندما نزل الأموريون في بلاد الشام أخذوا يتجولون في شمال سوريا بحثاً عن المناطق الأكثر خصوبةً، إلى أن استقروا في عدة مدن مكونين ممالك كان من أهمها ماري ويمحاض وألالاخ وقطنة.

١-مملكة ماري (تل الحريري)

يرجع تاريخ ماري إلى الألف الثالث والثاني قبل

الميلاد، وظهرت أهميتها بشكل خاص عندما سيطر الأموريون في بداية حكمهم على أطراف بلاد الشام، فخضعت مدينة ماري القريبة من الفرات لنفوذهم.

تقع ماري المعروفة حالياً باسم «تل الحريري»، على بعد ١١كم إلى الشمال الغربي من مدينة البوكمال على الضفة اليمنى لنهر الفرات، في منتصف الطريق الذي يصل بين البحر المتوسط وبلاد مابين النهرين. وهذا ما يدل دلالةً أكيدة على أهمية ماري الجغرافية، ويفسر أسباب ازدهارها الاقتصادي، وطمع الممالك المجاورة بها.

شهدت مدينة ماري فترتي ازدهار: الأولى في الألف الثالث، والثانية في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

سقطت ماري في نهاية المرحلة الأولى بيد الملك الأكادي شروكين (٢٢٨٤-٢٣٤٠ق.م)، وتعرضت للدمار والتخريب. ثم عادت للحياة من جديد مع وصول الأموريين إلى سوريا في بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

وكانت نهايتها هذه المرة في عهد ملكها زمري-ليم عام ١٧٥٩ق.م، على يد الملك حمورابي البابلي. واستمر زمري_ليم في حكمه تحت السيادة البابلية لمدة عامين، ثم حدث عصيان في ماري، فأرسل حمورابي جيشاً إليها دك أسوارها وأحرق القصر الملكي وبداخله الملك زمري-ليم



مدينة ماري

بنيت ماري في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وفق مخطط منتظم يحيط بها سور دفاعي قوي، وقامت ضمن هذا السور بيوت المدينة ومعابدها وقصورها، موزعة حول الشوارع بانتظام شديد. وكان اللبن المسطح_المحدب المستخدم في العراق القديم هو مادة البناء الرئيسة، مع استخدام الحجر الكلسي للأساسات، كما استخدم الآجر في الأقواس والأحواض.



مجسم نموذج بيت من بيوت ماري

بقيت ماري غائبة عن مسرح الأحداث إلى أن اكتشفت مصادفة عام ١٩٣٣م عندما وجد جماعة من البدو تمثالاً نصفياً في سفح تل الحريري، فقاموا بإخبار السلطات الفرنسية التي بدأت بعثة فرنسية تابعة لمتحف اللوفر بالتنقيب في الموقع. وأدت التنقيبات التي كانت برئاسة أندريه بارو إلى التأكد من أن هذا التل هو الموقع الأساسي لمملكة ماري.

كانت المعلومات المتوفرة عن تاريخ سوريا والرافدين قبل اكتشاف القصر الملكي ومحفوظاته المسمارية الأكادية، التي تعد من أهم المكتشفات في مدينة ماري، قليلة جداً خاصةً ما يتعلق منها بالحياة اليومية.

زاد عدد الرقم المكتشفة على عشرين ألفاً، تنقسم بشكل رئيسي إلى فئتين: الأرشيفات الإدارية والاقتصادية التي توثق النشاطات اليومية في مكاتب القصر وورشاته المختلفة من جهة، ووثائق المراسلات التي أسهمت في شهرة موقع ماري من جهة ثانية، وقد تولى ديوان القصر تصنيفها وأرشفتها.

تحتوي المراسلات على المراسلات الرسمية التي تلقاها ملك ماري من مختلف الدول المجاورة، وعلى الرسائل التي يتبادلها مع أعضاء عائلته وأقربائه. كما تشتمل أيضاً على التقارير التي كان ينقلها له كبار خدمه في مملكته من شتى الأقاليم.

ومن الأمور التي تحتسب لمملكة ماري مصارف المياه التي كانت بغاية الانتظام والإتقان. إن عدة دراسات حديثة جرت بتعاون وثيق بين الجغرافيين والآثاريين وعلماء الكتابات المنقوشة والمؤرخين، جددت فهمنا تماماً للطريقة التي استطاعت بها مملكة ماري أن تحل المشاكل المختلفة التي طرحتها إدارة المياه. كما مكنت بوضوح من استعادة مياه نهر الفرات ومياه الأمطار والأودية، ومياه الطبقة المائية الجوفية وتحويلها إلى قناة تستخدم لحاجات الري ولنقل الناس والبضائع.

لقد تبين لنا بشكل واضح من خلال هذه الرقم أن ماري كانت محطة لتجميع الخشب السوري الساحلي المتجه إلى العراق، ومقر تجميع وتوزيع المواد الأولية القادمة من جنوب العراق. إنها ممر إجباري للبضائع،

وهذا ما وفر للدولة ذلك الغنى والثراء الكبيرين الذين بلغتهما من خلال فرض رسوم خدمات ومرور على البضائع العابرة لها.

لقد اهتمت مملكة ماري بكل الأمور اللازمة لنجاح العملية التجارية، فقامت بإنشاء محطة لمراقبة المواصلات التجارية، عبر نهر الفرات على الحدود الشمالية من مملكة ماري. وكانت مهمة هذه المحطة جباية الرسوم والجمارك من السفن العابرة حسب نوعية البضائع وحمولتها منها. كما تذكر النصوص أسماء عدد من التجار، وتلقي بعض الضوء على نشاطاتهم وفعالياتهم التجارية المختلفة، كما تبين أن ماري كانت نقطة جذب للتجار، وأنها كانت مركزاً تجارياً مزدهراً في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

تتضافر المعلومات الواردة في النصوص مع المكتشفات الأثرية لتقدم أهم وأغنى الأمثلة المعمارية والفنية، بحيث تصبح ماري موقعاً متميزاً لا يجاريه أي موقع آخر في سوريا أو العراق. ولقد كان لوقوع

ماري بالقرب من موطن حضارة بلاد الرافدين أثر كبير في تنوع أساليبها الفنية، فيما عثر عليه من آثار فيها. لقد جمعت هذه الأساليب بين الفنون السورية والعراقية معاً، وأنتجت فناً خاصاً بها، وصفه علماء الفن بأنه من أرقى الفنون أسلوباً وتعبيراً.

كما كان للعمارة في ماري شهرة واسعة سواء الدينية منها أم المدنية، إلا أن أشهر هذه العمائر القصر الملكي لزمري ليم الذي كانت له شهرة كبيرة، نظراً لاتساع مساحته وكثرة ملحقاته ورسوم جدرانه. ويعد بحق من أجمل وأضخم القصور التي شيدت في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد في منطقة غرب آسيا.

شيد القصر وسط المدينة في مكان مرتفع، وهو مربع الشكل، في سوره عدة أبواب، وكل باب مخصص لدخول نوع محدد من الناس. وكان أي القصر مقسماً إلى أجزاء عديدة يتجمع كل قسم منها حول باحة سماوية واسعة تحيط بها الغرف من جميع الجهات. وأحياناً نجد رواقاً معمداً يمتد حول الباحة بحيث يؤلف داراً مفصولة عن غيرها تقريباً.



قصر الملك زمرلي ليم- ماري

وقد رُصعت بعض جدران القصر الرئيسة بلوحات ملونة أخذت مناظرها، بما أخذ به فن النحت المحلي في عهدها، من واقعية الملامح وتفاصيل الأزياء. وعبرت الرسوم عن مناظر أسطورية وعسكرية ودينية لم يبق منها للأسف إلا القليل. وكانت أكثر المناظر حيوية مواكب القرابين التي تصور رجالاً بوجوهٍ نحيفة ودقيقة ولحى قصيرة،

يغطون رؤوسهم بقلانس بعضها مرتفع وبعضها الآخر عريض منخفض. وقد كانت الواجهة الداخلية لجدران قاعة العرش مزينة برسوم ومشاهد ملونة، استمدت موضوعاتها من العالم الديني للعموريين في شمال شرق سوريا.





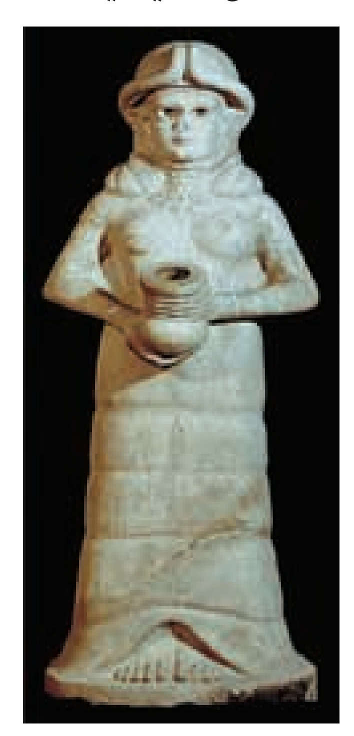
مشاهد من اللوحات الجدارية الملونة في قصر الملك زمري ليم

أما على صعيد المنحوتات فقد استخدم الحجر وخاصة الألباستر أو الباتر، وهو نوع من الحجر الرخامي الأبيض، بالإضافة إلى حجر الديوريت الأسود . وكان يؤتى بالحجر من مناطق بعيدة نائية لخلو منطقة الأنهار منها .

امتازت منحوتات ماري بالاتجاه نحو الواقعية، إذ يلاحظ أن الفنان حاول قدر الإمكان الاقتراب من الأصل المراد نحته. وأضفى على منحوتاته مرونة وانسيابية في الخطوط، مع الحرص على إظهار الوداعة والبشاشة التي اختصت بها تماثيل ماري، والنظرة البعيدة التي تعبر عن التأمل والابتهالات الدينية والأمل المشرق. وكان لهذه التماثيل أماكنها الخاصة إلى جانب تمثال الإله في المعبد، حيث توضع على مصاطب عُملت خصيصاً لتستقبل الهدايا من التماثيل.

تمثال من ماري

ومن أهم تماثيل ماري تمثال «إلهة الينبوع» المتمثل بإمرأة واقفة ترتدي ثوباً طويلاً متموجاً مشيراً إلى تموجات المياه، وتتدلى منه فروع صغيرة ترمز إلى مجاري الأنهار وفيها بعض الأسماك. تمسك الإلهة بيدها إناءً تتدفق منه المياه رمزاً للخصوبة والحياة. ولم يغفل الفنان إبراز العظمة والسمو والسيادة، على وجهها رغبةً منه في إعطاءها بعداً قدسياً. ويعرض هذا التمثال حالياً في متحف حلب.



إلهة الينبوع

ومن بين الأمور الهامة التي تفصح عنها نصوص ماري، مكانة المرأة في المجتمع والديانة والسياسة. ويؤكد ذلك العثور على بعض الرسائل المرسلة من الملك إلى أحد أتباعه يوضح فيها رغبته بمغنية مرموقة، أو إمرأة جميلة، تضاف إلى محظيات القصر، إلى جانب الزوجة الأولى. ولم يهمل الفنان هذا الجانب فقام بنحت بعض المحظيات أوالمغنيات. وأشهر مثال عن ذلك تمثال المغنية أورنينا.



المغنية أورنينا

لقد حظي الفنان الأموري بدعم من القصر الملكي في ماري، وكانت له مكانة مرموقة حفزته على العطاء بشكلٍ أكثر دقة وإتقان، فغدت جداريات ماري بانوراما خالدةً تؤكد دور الفنان في بناء صرح المدنية والتطور الحضاري والإنساني. وهو بالإضافة إلى كل ما ذكر سابقاً ساهم في بقاء اسم ماري حياً عبر العصور رغم دمارها على يد حمورابي البابلي في عام ١٧٥٩ق.م.

٢-مملكة يمحاض (حلب)

قامت مملكة يمحاض في الفترة نفسها التي تأسست فيها بقية الممالك الأمورية، أي مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد، واتخذت من حلب عاصمةً لها.

تقع حلب في منطقة متوسطة بين الأناضول والجزيرة السورية وبلاد الرافدين والبحر المتوسط، إلى الغرب من سهل منبسط يمتد حتى الجزيرة ووادي الفرات، وتحيط به الجبال من الشمال والغرب والجنوب. وتعد هذه المنطقة ملتقى لجميع الطرق الرئيسة القادمة من الشرق إلى شمال سوريا والأناضول والبحر المتوسط، حيث ارتبطت بالشرق عبر طرق مواصلات سهلة

وكذلك اتصلت بالبحر المتوسط بممرات جبلية سهلة العبور.

نظراً لصعوبة التنقيب في مدينة حلب المأهولة حتى الآن، فإن مصادر المعلومات عن مملكة يمحاض لا تأتي منها مباشرةً وإنما تُستمد من محفوظات مدن أخرى ارتبطت مع حلب بعلاقات وثيقة وخاصة مدينتي ماري وألالاخ.



مدينة حلب

ونتعرف من خلال وثائق هاتين المملكتين على ملوك السلالة الأمورية الحاكمة في يمحاض وعددهم تسعة. وأبرز هؤلاء الملوك سومو إيبوخ مؤسس السلالة اليمحاضية. والذي يرد ذكره وكذلك يمحاض في نص تأسيس معبد في ماري من عصر ملكها يخدون ليم. كما يرد في نصوص ليخدون ليم ملك ماري ووالد زمري ليم في بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وذلك في رسالتين من أبي سمار، وهو حاكم لبعض المناطق والمدن المتاخمة ليمحاض، إلى الملك يخدون ليم. وتفيد هاتان الرسالتان بوجود هجوم مسلح بقيادة سومو إيبوخ ملك يمحاض على مناطق أبيٍ سمار. أما حدود مملكته في عصره فغير معروفة تماماً، ولكن من المرجحِ أنها وصلت إلى العاصي غرباً وإلى نهر الفرات شرقاً ومملكة قطنا جنوباً.

تظهر مملكة يمحاض من خلال نصوص ماري وألالاخ، بأنها كانت من أكبر الدول الأمورية في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. ففي رسالة وجهها أحد موظفي زمري ليم ملك ماري إلى سيده يقول: «لا يوجد ملك قوي لوحده، عشرة أو خمسة عشر ملكاً

يتبعون حمورابي ملك بابل ومثلها يتبعون ريم سين ملك لارسا ومثلها يتبع ايبال بي انل ملك اشنونا ومثلها يتبع إموت بي ايل ملك قطنة وعشرون ملكاً يتبعون يارم ليم ملك يمحاض».

وكذلك تشير بعض الرسائل إلى أن ملك ماري كان يحرص على تقديم الهدايا النفيسة إلى ياريم ليم ملك حلب. وتشير إحدى السجلات إلى ختم اسطواني كبير من اللازورد مرسل إلى ياريم ليم ملك حلب.

ومن الأمور التي تدل على زعامة حلب الدينية للممالك الأمورية في شمال سوريا، احتفاظها بعبادة إله الطقس حدد، الذي كان يعتبر الرب الأكبر عند الأموريين، وبزوجته الإلهة خيبات، الذي يعني الحلبية أي سيدة حلب. وربما كان ذلك بسبب كميات الأمطار المعتدلة التي سمحت بإقامة زراعات بعلية دائمة، يساهم في ذلك خصوبة التربة في تلك المناطق، مما جعلها أحد أهم المناطق الزراعية في المشرق العربي. هذا بالإضافة إلى وجود سهول رعوية واسعة.

وقد حرص الملوك الأموريين على زيارة حلب وتقديم الأضاحي للإله حدد. وتحدثنا النقوش عن أن زمري ليم ملك ماري، كان يحرص باستمرار على زيارتها وتقديم الأضاحي للإله أو إرسالها مع أتباعه. كما أنه صنع لنفسه تمثالاً من البرونز وقدمه للرب حدد بمناسبة اعتلائه العرش.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين ماري ويمحاض فإن الدراسات والنصوص المتوفرة تبين أن العلاقة لم تكن مستقرة وإنما اختلفت من فترة إلى أخرى. فبعد أن كانت سيئة جداً أصبحت جيدة وحميمة وربما أكثر من ذلك، إذ يمكن القول أنها تحولت إلى علاقة تبعية.

فعلى رقيم عثر عليه في ماري يعود لعهد يخدون ليم، يذكر ملك يمحاض بأنه دخل في مؤامرة ضد ملك ماري يخدون ليم عندما كان في إحدى الحروب. ومما يدل على سوء العلاقة بين الطرفين أن ملك يمحاض وقف متفرجاً عندما قام شمشي أدد ملك آشور، بمهاجمة ماري وذبح أسرتها الحاكمة، التي لم يبق منها سوى الطفل زمري ليم الذي التجأ إلى ملك حلب.

بعد موت شمشي أدد تمكن زمري ليم حوالي عام ١٧٨٢ق.م من العودة إلى حكم مملكته بمساعدة ملك يمحاض، وبذلك تغيرت طبيعة العلاقات بين الطرفين وأصبحت علاقة صداقة وقرابة ومصالح.

تجلت الصداقة بمساعدة ملك حلب لزمري ليم على استرجاع ملكه. وزاد في متانة وتوطيد هذه العلاقة أن ملك حلب زوج ابنته أو أخته شبتو لزمري ليم. أما العلاقات الاقتصادية فهي خير ممثلٍ لترابط المصالح بين الطرفين. فحلب كانت تسيطر علىً ممر التجارة الدولية بين الأناضول والرافدين وسوريا ومصر، كما أنها تتوسط منطقة زراعية غنية تنتج المواد الزراعية مثل الزيت والنبيذ. وبالتالي استفادت ماري كثيراً من علاقاتها مع يمحاض، إذ أصبحت الوسيط التجاري بين يمحاض وبلاد ما بين النهرين، وبذلك تمكنت من التحكم بتجارة بابل وفرض شروطها عليها. وربما كانت هذه هي الأسباب التي دفعت حمورابي ملك بابل للهجوم على ماري وتدميرها مستغلاً تغير الظروف الدولية بعد موت ياريم ليم وفراغه من توطيد الأمن على حدود بلاده.

وعن كيفية نقل البضائع من يمحاض إلى ماري وبالعكس، أكدت الدراسات أن النقل البري والنهري كانا يساهمان في ذلك. إذ كانت الحمير تنقل الحبوب والبضائع الأخرى إلى مرفأ إيمار، حيث تحمل إلى السفن الراسية هناك لتنقل إلى ماري وغيرها من الدول الأخرى.

وكانت مملكة ألالاخ تابعة لهذه المملكة وبمنزلة استراحة لملوكها. وقد أعطت نصوص ألالاخ التي عثر عليها في الطبقة السابعة والتي بلغ عددها ما يقارب /٤٦٠/ رُقماً نقشت بالكتابة المسمارية واللغة الأكادية، معلومات هامة عن تاريخ ألالاخ ويمحاض وعلاقتهما مع الممالك المجاورة في الألف السابع قبل الميلاد. وتذكر هذه الرقم أحداثاً سياسية جرت في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، وتقص أخباراً عن حكام يمحاض وألالاخ، وذلك عندما كانت ألالاخ جزءاً من مملكة يمحاض القوية التي شملت سلطتها آنذاك شمال سوريا.

وبالنسبة للأوضاع الاجتماعية في مملكة يمحاض فنعرف أن العبيد كانوا يشكلون الطبقة الدنيا في المجتمع. وكان هؤلاء العبيد من الفلاحين والحرفيين والملاك الصغار، الذين عجزوا عن الوفاء بديونهم مع الفوائد التي ترتبت عليها، وشكلت الحروب أيضاً أحد المصادر الهامة التي حصل الميسورون منها على العبيد، بسبب تحول أسراها من الجنود والمدنيين إلى عبيد للمنتصرين.

وظلت يمحاض قوة اقتصادية هامة في المنطقة إلى أن سقطت مع بابل على يد الحثيين العدو اللدود لهم، قادمين من الشمال حوالي ١٥٦٠ق.م..

إن هذه المعلومات عن مملكة يمحاض هي مجرد إشارات لبعض الأحداث والظروف، ولاتعطي صورة واضحة عنها، لأنه لم تتم حتى الآن معرفة المكان الثابت لموقع المدينة القديمة. وتقوم حالياً بعثة سورية-ألمانية مشتركة بالتنقيب في قلعة حلب حيث يُتوقع وجودها.

٣-مملكة ألالاخ (تل عطشانة)

تقع ألالاخ (تل عطشانة) قرب أنطاكية عند المجرى السفلي لنهر العاصي، في منتصف المسافة بين حلب والبحر المتوسط بطول ١٠٠كم. كما أن موقع المدينة العتيقة يشرف على الطريق المؤدية إلى الأناضول، شمالاً عن طريقٍ منافذ جبال الأمانوس، وجنوباً بطريق ساحلية وصولاً إلى لبنان، وأخرى داخلية إلى دمشق. ويتميز تل عطشانة بشكله البيضاوي غير المنتظم، ويتجه إلى جهة الشمال الغربي والجنوب الشرقي، وتبلغ أبعاده (٣٠٠×٧٥٠م).

بدأ الآثاري ليونارد وولي التنقيب في تلال ثانوية بالقرب من تل عطشانة عام ١٩٣٧م، وأثبتت التنقيبات أن هذه المنطقة كانت مركزاً لاستيطان الإنسان منذ نهاية العصور الحجرية وبداية عصر الفخار، فقد عثر على دمى تمثل الإلهة الأم، تشبه ما كشف عنه في سوريا وبلاد الرافدين وأوروبا . كما عثر على فخاريات يدوية خشنة بسيطة الصنع، وعلى أنماط من الفخار تشبه ما هو مكتشف في بلاد الرافدين وسوريا الداخلية من

الألف السابع والسادس قبل الميلاد، وهذا يثبت العلاقة القوية بين هذه المناطق.

أدت مواسم التنقيب المتعددة إلى الكشف عن سبعة عشر طبقة أثرية، وصلت إلى عمق ٤،٢٠م حيث ينتهي المستوى الأثري الأقدم، أي أنه وصل إلى الأرض التي لم يمسها أحد. وتعود الطبقات الأولى منها (الطبقات من ١٧ إلى ١٣) إلى الفترة ما بين (٣٥٠٠-٢٩٠٠ ق.م). ويتصف فخار المستوى السابع عشر بأنه مصنوع بوساطة دولاب الخزاف. ويعتقد وولي أن أصحاب هذه الثقافة قدموا من جهات قريبة، أي من سهول حلب في منتصف الألَف الرابع قبل الميلاد، حيث بدأ السكن لأول مرة في تل عطشانة، وأنهم أسسوا مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم ألالاخ. بينما يعود السكن في سهل العمق المحيط بها إلى الألفين السابع والسادس قبل الميلاد، أي إلى العصر الحجري الحديث.

دامت المدينة قرابة الألفي عام، وأعيد بناء المعبد خلال هذه المرحلة أكثر من خمس عشرة مرة. وهذا يشير إلى أن السكان المتتاليين على المكان لم يتجرأوا على تغيير مكان بناء مقدس.

لقد عانى وولي كثيراً في التنقيب عن السوية السابعة عشر، بسبب وجود الماء، ولذلك لم يستطع الحصول على نتائج واضحة لعمارة أقدم معبد في المدينة، نظراً لانهدام بعض الأجزاء بسبب المياه.

وفيما يخص معبد السوية السادسة عشر فمن الواضح أنه بني فوق مصطبة، وأن أرض ساحته رصفت بمربعات من الفخار، وكان يحيط بها جدران من الآجر المطلي، وله بئر خاص به. وقد دمر هذا المعبد بسبب حريق وقع فيه، في أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

وعثر في (الطبقات من ١٢-٨) العائدة للألف الثالث قبل الميلاد على طراز معماري جديد، وهو الأبنية الطابقية للمعابد، الذي يعد طرازاً سورياً فريداً في هذه المرحلة.

أما المعابد في السويات الأحدث وخاصةً من الرابعة وحتى الأولى، فإنها تتشابه في عمارتها مع عدد من المعابد في سوريا وبشكل خاص مع معابد أوغاريت.

وقد كشف وولي عن أبنية سكنية متوضعة على ثلاث طبقات ضمن السوية الثانية عشر، ولاحظ فيها تغيراً في

طريقة بناء المنازل بين كل طبقة وأخرى. كما لاحظ أن القصر الملكي بني حول المعبد، أو في مكانه تقريباً، وبني المعبد الجديد إلى جانبه، بعد إقامة شعائر خاصة بها قبل هدمها. ويعتبر قصر الملك ياريم ليم من أهم الاكتشافات في ألالاخ، إذ عثر في صالة صغيرة منه قرب قاعة العرش على نصوص مسمارية تحتوي على معلومات إدارية واقتصادية، كما عثر على بعض القطع العاجية، وهو مادة ثمينة تاجرت بها ألالاخ مع مصر. وكان مصدرها الخاص للعاج الفيل السوري، الذي عاش في الألف الثاني قبل الميلاد قرب حلب والفرات. يتكون القصر من طابقين، خصص الطابق العلوي منه لسكن الملك، بينما خصصت الغرف في الطابق السفلي للخدم والحاشية.



مخطط قصر
ياريم ليم

عند مقارنة النمط المعماري لهذا القصر مع طراز عمارة قصر كنوسوس في جزيرة كريت، نجد بينهما تشابه كبير. وهناك من يعتقد أن قصر يريم ليم اقتُبس عن القصر الكريتي، إلا أن هذا غير دقيق تاريخياً على الأقل، فقصر ياريم ليم أكثر قدماً إذ أنه يعود إلى ١٧٠٠ ق.م، و الأكثر منطقية أن مخطط قصر كنوسوس في كريت، هو الذي اقتُبس من بعض مخططات قصور غرب آسيا، بواسطة الكنعانيين التجار الذين جابوا البحار وصولاً إلى العالم الإيجي. كما أن هناك نماذج أخرى من هذا الطراز المعماري في الشرق، مثل قصر زمري ليم في ماري، بينما قصر كنوسوس هو الوحيد من نوعه في العالم الإيجي.

وعثر في بيوت الطبقتين السادسة والخامسة على مجموعة جيدة من الأدوات المنزلية الفخارية، وعلى الكثير من الطلاء الأحمر والتماثيل الصغيرة، والأختام الأسطوانية.

وتعود معظم البيوت الخاصة المكتشفة في السوية الرابعة، لأشخاص أغنياء توضعت على امتداد السور

الشمالي الغربي للمدينة، وتألفت جميع هذه المنازل من طابقين وكان لكل بيت باحة رئيسة تحيط بها الغرف التي تنفتح عليها .



مخطط لقصر كنوسوس في جزيرة كريت

أما فيما يتعلق بالبيوت الصغيرة، بيوت عامة الشعب، فإن ما تبقى منها غير كاف لتصور مخططها، إلا أننا نستطيع التنبؤ من خلال الآثار المتبقية للجدران الرقيقة أنها كانت تتكون من طابق واحد وأن سطحها أفقي. وقد احتوت تلك البيوت على قبور كثيرة تحت أرضيتها في حين خلت منازل الأغنياء من مثل هذه القبور، ومن ذلك يمكن القول أن أغنياء ألالاخ دفنوا موتاهم خارج المدينة في مدافن خاصة بهم، في حين دفن الفقراء موتاهم تحت بيوتهم.

يحيط بمدينة ألالاخ سور يزداد سماكة باتجاه الطبقات الأقدم فيه. وقد اعتُمد في بناء هذا السور على خليط من اللبن ومخلفات الفخار، التي ساعدت بشكل كبير على تأريخ السور، الذي لم يأخذ شكلاً دائرياً حول المدينة بل أنه كان يتشكل حسب الضرورة والاحتياجات. وقد اتضح أن القصر الملكي كان يشكل جزءاً من سور المدينة، المتجه إلى الجنوب الشرقي. وكانت أغلب بواباته، أي السور، غير ملحوظة إذ بني عليها جزء من السور في سويات لاحقة. ولعل أقدم بوابة عثر عليها في السوية السابعة وهي البوابة الشمالية الشرقية، الوحيدة المكتشفة من هذه السوية.

عثر في ألالاخ على العديد من الأختام الأسطوانية وكان من أهمها ختم بيضوي الشكل يتضمن في محتواه رجلاً جالساً على كرسي ومرتدياً ثوباً طويلاً، وفي الجهة المقابلة منه نقش لرجل آخر يرفع يده اليسرى وكأنه يدعوه للطعام، ولايحتوي هذا الختم على أية كتابة. كما وجد على أحد الأختام المكتشفة شكل ضفيرة مؤلفة من أربع جدائل فُقد الجزء العلوي من النقش، إلا أن مابقي منه يكفي لأن نميز فيه نقشاً لرجل يتصارع مع أسد. وهناك ختم ثالث تقف فيه ربة وهي ترفع يديها، وتعتمر قبعة على شكل قرن، وترتدي ثوباً طويلاً. يقف أمامها رجل يرتدي رداءاً طويلاً ويرفع بيده اليمنى كأساً. ويفصل بين الإلهة والرجل، نسر يحمل في ساقه اليسرى نوعاً من الجواهر، مما يذكرنا بمشاهد مماثلة لها من مصر «النسر حوروس».

ويتضح من خلال بعض نصوص ألالاخ أنه كانت هناك عملية تبادل لقرى ومدن بين ملك يمحاض أبا إل وحاكم ألالاخ ياريم ليم.

إن النصوص المكتشفة كما نوهنا سابقاً هي من محفوظات القصر الملكي، وبالتالي فإنها تبرز وجهة

نظر القصر قبلٍ كل شيء، إذ شكلت محفوظات السوية السابعة فرعاً من المحفوظات الرئيسة في العاصمة المركزية في حلب وذلك ضمن سيادة يمحاض على ألالاخ.

أما محفوظات السوية الرابعة فكشفت عن محفوظات ملكية مستقلة مع بقاء التبعية الإدارية لملك حوري ميتاني. وقد أحدث هذا التغير السياسي تعديلاً على الصعيد الاجتماعي والديني أيضا ليتوافق مع الوضع الجديد.

لقد كان دور إله الطقس حدد هاماً جداً في استقرار السكان ورغد عيشهم، باعتباره المسؤول عن الأمطار اللازمة لهم ومزروعاتهم، ولهذا انتشرت عبادته بشكل خاص في منطقة سوريا الشمالية المحيطة بحلب مع زوجته خيبات.

تجمع الآراء على أنه لم يكن للمعبد دور واضح في إدارة الشؤونٍ السياسية أو الاقتصادية، وهذا الأمر يبدو منطقياً إذا علمنا أن سلطة المعبد بدأت تتقلص في

الألف الثاني قبل الميلاد، وتتحول إلى ما يمكن تسميته اقتصاد القصر، حيث أصبح القصر هو المالك الرئيس للأراضي وإلى جانبه معبد أو عدة معابد. وعلى هذا فإن المُلكية في ألالاخ انقسمت إلى قسمين:

- الملكي وهو المسيطر على الأراضي والاقتصاد وإلى جانبه المعبد.
- العامة من العائلات المتفرقة، والمراكز الأخرى المستقلة عن القصر.

كان للوثائق المكتشفة أيضاً دور في معرفة التكوين السكاني في ألالاخ خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وذلك من خلال لوائح الأسماء المكتشفة والتي بلغ عددها ما يقرب من ٥٢٤ اسماً أمورياً. كما أن بعض الأسماء النسائية تدل على وجود حوري مبكر منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهذا يؤكد بشكلٍ واضح أن شمال سوريا كان منذ ذلك الزمن موطناً للقادمين من الشمال، الذين يأتون ويستقرون طلباً للعيش والسلطة في أوقات الضعف. أما خلال القرن الخامس عشر قبلٍ الميلاد فنجد أن العناصر الحورية أصبحت أكثر عدداً من الأمورية.

أما أهم الطبقات الاجتماعية في ألالاخ فهي:

١-الخبشو: استوطنت هذه الفئة في الأرياف وشكلت النسبة الأكبر بين سكانها . وقد وصلت نسبتها إلى قرابة ثمانية أضعاف الفئات الأخرى. وكانت تهتم بالأمور الزراعية، على الرغم من أنهم لم يكونوا جميعهم من الفلاحين، الذين كانوا يملكون كروماً وبيوتاً ومواشي. وهناك حالة واحدة تبين أنه يوجد عبد مملوك في هذه الفئة. ويقترح بعض الباحثين أن هذه الفئة هم أنصاف أحرار لم يخدموا كجنود في ألالاخ وإنما انخرطوا في أعمال الزراعة، وإن أتقن بعضهم حرفة ما . وهناك نص واحد فقط من بين مجموع النصوص المكتشفة يذكر أن بعضهم عمل في الحقول التابعة للقطاع الملكي.

٢-الخانياخو: هم أقل استقراراً من الطبقة السابقة بسبب عملهم بالرعي والاهتمام بالماشية، إلا أنهم كانوا يستقرون في بعض أوقات السنة في البوادي من أجل الرعي. وإضافة إلى عملهم الرئيس بالرعي فإن بعضهم مارس أعمالاً حرفية مثل مهنة البستاني والحرفي والمغني. وقد امتلك الخانياخو بيوتاً خاصة

بهم، وكان عدد العمال الموجودين في هذه الفئة ضعف ما هو عليه في الفئة السابقة.

٣-**أخيل**: تمثل هذه الفئة الطبقة الحرة الطليقة مع التزامها بالخضوع للسلطة المركزية، وشغل بعض أفرادها مناصب إدارية راقية.

٤-**ماريانو**: وتعني الفرسان أي «أصحاب العربات». يتبادر إلى الذهن من خلال صفتهم أن جميعهم امتلك العربات إلا أن هذا غير صحيح اعتماداً على اللوائح، وربما امتهن بعضهم مهناً أخرى ذات أهمية مثل وظيفة العمدة والكاتب والتاجر.

تذكر بعض نصوص القرن الخامس عشر قبل الميلاد أن فئة الماريانو لم تكن مقتصرة على طبقة النبلاء في ألالاخ بل شملت غيرهم أيضاً، وكان يمكن للنساء مثلاً أن يمنحن هذا اللقب عن طريق الزواج أو الولادة.

نلاحظ مما سبق أنه لم يتم تدوين جميع فئات المجتمع في لوائح الإحصاء، إذ أنه مما لاشك فيه أن

العبيد قد شكلوا قطاعاً هاماً في المملكة. وهم ينقسمون إلى قسمين: العبيد الدائمون الذين يعملون في القصر، والأحرار الذين لم يتمكنوا من سداد ديونهم، فاضطروا للعمل كعبيد عند الدائن الذي هو في أغلب الأحيان الملك أو أسرته حتى يتم سداد الدين.

لقد عكست النصوص دور اقتصاد القصر المسيطر بشكل عام. وذكرت قوائم المخصصات وجود حرفيين عملوا ضمن نطاق القصر وخارجه لصالح الأمراء وبلاطهم. وذكر بالدرجة الأولى النساجون وهذا أمر منطقي تفسره الثروة الحيوانية الضخمة، التي كانت تملكها مملكة يمحاض ومن ضمنها ألالاخ، حيث كانت تتم الاستفادة من صوفها في عملية صنع المنسوجات. وتعد صناعة الصوف وتخمير البيرة والنبيذ، وكذلك إنتاج زيت الزيتون، من أهم المهن والحرف التي وجدت في ألالاخ. هذا بالإضافة إلى انتشار صناعة الفخار الذي كان المادة الرئيسة المستخدمة لتصنيع أوعية الطعام لحفظ البيرة والنبيذ والزيت. ولا ننسى أن نذكر مهنة الحدادة والصياغة أي صياغة الذهب والفضة.

لقد كانت التجارة مزدهرة جداً في شمال سوريا

مع الأناضول وبحر إيجة، ونجد نماذج ممتازة من فخار السوريين الذي انتشر في مواقع كثيرة من غرب المتوسط، مما يدل على الانتشار الكبير والواسع للتجارة السورية، في أرجاء مختلفة من العالم القديم.

وقد يعد اكتشاف الفخار المزجج من أهم المكتشفات الصناعية في ألالاخ، إذ لم يصدق وولي نفسه للوهلة الأولى عندما شاهد قطعة فخارية مزججة (أي قطعة فخار تلتصق عليها طبقة من الزجاج)، تعود إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهذا ما يعد ثورة في أوساط علماء الآثار، إذ أن أقدم الشواهد على الفخار المزجج كانت من قصور آشور وتعود إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد.

أما فيما يخص فن النحت فلا شك في أنه بلغ مستوى رفيعاً في ألالاخ، ويؤكد ذلك اكتشاف مجسمين لرأسين بشريين نحتا من الحجر، وظهرا في الطبقة السابعة. نشاهد على إحداها تأثيرات فنية رافدية، بينما يشهدُ الثاني على قوة التأثير المصري.



الملك ياريم ليم الحلبي- ألالاخ

وفي معبد ألالاخ من الطبقة الرابعة عُثر على تمثال الملك أدريمي، كان للتمثال وظيفة دينية تعبدية، حيث مثل الملك وهو يلف جسده برداء بسيط ورأسه

معصوب، وقد غُطي جسم التمثال بكتابات تروي سيرة الملك أدريمي. كان أبوه وفقاً للكتابة ملكاً مستقلاً على

حلب، قامت ضده ثورة قتل على إثرها، مما اضطره، أي أدريمى إلى الهرب مع أخوته إلى أخواله في إيمار. وبعد طول معاناة في سبيل استرداد الملك تمكن من العودة إلى مدينته واستعادة ملك أبيه. توالى على الحكم بعده عدد من الملوك إلى أن سقطت المملكة تحت حكم الملك الحثي شوبيلوليوما في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، الذي وضعها تحت إشراف نائب الملك الحثي في كركميش.



الملك أدريمي

انتهت هذه المرحلة الصعبة من تاريخ ألالاخ عام ١١٩٤ق.م على يد شعوب البحر الذين قضوا على الدولة الحثية وكركميش ثم ألالاخ وأوغاريت.

وربما كان من أجمل الأشياء التي وصفت مملكة ألالاخ ووفتها حقها، ما قاله فيها الباحث ليونارد وولي: «إنها تحمل طبعات حضارة سومر العتيقة، وبابل ومصر والحثيين والميتانيين. وقد أثرت ـ أي ألالاخ ـ في تطور الفكر الكريتي الذي يثير إعجابنا في قصر مينوس في كنوسوس، ونتعرف من خلال ألالاخ على ثقافة عصر البرونز في قبرص. وتشهد على امتداد تجارة جزر الإغريق إلى الشرقٍ، في عصر ما قبل التاريخ الإغريقي، وتلقي ضوءاً جديداً على مظاهر اقتصاد الإمبراطورية الأثينية، وتصل مساهمتها حتى عصر النهضة الإيطالي، حيث نلمس مدى انتشار الحضارة السورية القديمة».

٤- مملكة قَطْنا (تل المشرفة)

يقع تل المشرفة على بعد ثمانية عشر كم، إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص، في سهل خصب

كثير الأمطار، ساعد على إقامة نظام زراعة بعلية، إضافة لزراعة مروية تعتمد على روافد صغيرة لنهر العاصي، وعلى عدد من البرك والبحيرات الصغيرة التي جفت مع مرور الزمن.

بدأ التنقيب في موقع تل المشرفة عام ١٩٢٤م برئاسة روبرت دوبوسون الذي لم يتابع العمل في الموقع لأكثر من ثلاثة مواسم، عثر خلالها على عدد من الوثائق المسمارية البابلية العائدة إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهي تذكر اسم الموقع القديم «قطنا» ويعني الاسم الرفيعة أو الصغيرة، وتحفظ هذه الوثائق حالياً في متحفي اللوفر وحلب.

توقف العمل في الموقع حتى عام ١٩٩٤م حيث قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بإرسال بعثة وطنية لمتابعة التنقيب من جديد، ثم اشتركت مع بعثة ألمانية وأخرى إيطالية في التنقيب عن هذا الموقع.

كشفت التنقيبات عن أن أقدم السويات الأثرية في المدينة تعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل

الميلاد، وقد عثر فيها على حي سكني ومدفن ومخازن للحبوب تعود إلى ما بين (٢٤٠٠- ٢٠٠٠ ق.م).



آثار مملكة قطنا

استطاع الأموريون إقامة مملكة لهم في قطنا، بلغت ذروة ازدهارها في الفترة الواقعة ما بين (١٨٠٠- ١٦٠٠ ق.م)، وكانت معاصرة للممالك الكبرى في ماري وحلب وبابل. وقد أحيطت مدينة قطنا ذات المخطط الدائري بعدد من

القرى الصغيرة، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى القول أن قطنا كانت مقراً لسلطة مركزية. وفي فترة تالية أي مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد، أحيطت المدينة بسور ترابي مربع الشكل حفرت فيه بوابات. وكما هو معروف فإن أكروبول المدينة، أي قلعتها، هو المكان الأكثر أهمية، حيث تم الكشف فيه عن عدد من الأبنية الخاصة والعامة، إذ وجد فيها مبنى رسمي ومصنع للفخار هو الأكبر من نوعه في ذلك العصر.

أما القصر الملكي، الذي يعتقد أنه بني في الفترة مابين منتصف القرن السابع عشر ومنتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، فتم بناءه عند قاعدة الرابية المتوسطة في أكروبول المدينة على مصطبة، جزء منها طبيعي والآخر اصطناعي. واحتوى القصر على أكثر من ثمانين غرفة موزعة على طابقين، منها قاعة العرش التي يصل طولها إلى ٤٠م، وقاعة الاستقبال المربعة الشكل (٣٦×٣٦م) والمغطاة بسقف مرفوع على أربعة أعمدة خشبية قاعدتها حجرية. أما جدران الغرف فلم تترك بدون زينة، إذ وجد على جدران إحدى غرف القصر رسومات جدارية.



القصر الملكي

وقد عثر في هذا القصر الملكي عام ٢٠٠٢م على ثلاثة وستين لوحاً مسمارياً في ممر يقع تحت الأرض ويدخل إليه من درج موجود في قاعة العرش. كما عثر على قصر صغير آخر يقع إلى الجنوب من القصر الملكي يعود إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. يتألف من قاعة كبيرة تصطفُّ حولها الغرف والممرات المرتبطة بالقسم السكني، إضافةً إلى القسم الرسمي الذي يتألف من غرفة كبيرة يتميز مدخلها بوجود قاعدتين من البازلت. وهذا القصر يحمل الكثيرمن الخصائص المعمارية الجميلة التي نجد ما

يشابهها في مواقع مثل ألالاخ (تل عطشانة)، وأوغاريت (رأس شمرا).





قصر المنطقة المنخفضة

وفي قصر ثالث يقع بالقرب من القصر الملكي على بعد حوالي مائة وخمسون متراً من البوابة الشمالية، وجدت مجموعة من الأختام الطينية، بلغ عددها ما يقارب المائتا ختم، بالإضافة إلى قطع عاجية وكميات كبيرة من الفخار الإغريقي والقبرصي والرافدي. وفي هذا دلالة واضحة على اتساع العلاقات التجارية لمملكة قطنا في ذلك العصر.

وتعد محفوظات مملكة ماري المصدر الرئيس لدراسة تاريخها في هذا العصر. وتذكر هذه المحفوظات اسمي ملكين من ملوكها هما أشخي أدد وأموت بيل.



تماثيل من قطنا

تشير الوثائق إلى ارتباط كبير بين ملوك قطنا وملك آشور الأموري شمشي أدد الأول، إذ كان كلا الطرفين بحاجة للآخر. فموقع قطنا الجغرافي يفيد سياسة شمشي أدد في حرصه على ألا يعلو شان ملوك يمحاض، الذين التجأ إليهم زمري ليم، الفار من ماري إبان احتلاله لها؛ ويحد من طموحهم بإعادة زمري ليم إلى الحكم، ومد نفوذهم إلى المناطق الشرقية. وبالمقابل كانت قوة شمشي أدد تغري حكام قطنا بالاحتماء به والتحالف معه لضمان الحماية من الخطر اليمحاضي على مملكتهم الصغيرة.

كما رغب الملك الآشوري بإقامة علاقات جيدة مع مملكة قطنا إدراكاً منه لأهمية موقعها على الطرق التجارية المؤدية إلى الساحل السوري.

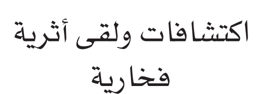
استغلت قطنا موقعها الجغرافي أحسن استغلال، فتحولت إلى منطقة عبور أساسية في وسط سوريا وعلى أطراف باديتها، تعبُرها القوافل التجارية المتجهة من بلاد الرافدين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن حلب شمالاً إلى فلسطين جنوباً. ولذلك كانت القوافل

تتخذها محطة للاستراحة والتزود بالمواد الغذائية، ولتبادل السلع في سوقها النشطة.

وهناك نص من أواخر عصر زمري ليم يشير إلى وجود «اتحاد للتجار» في قطنا، يحقق في الخلافات التجارية وتفصل فيما بينها، وتمثل التجار في الوساطة بين القصر والسكان.

تشير الوثائق إلى أن قطنا امتلكت علاقات تجارية جيدة مع أغلب الممالك والمدن الرئيسة في المنطقة، وأن حركة الرسل منها وإليها كانت في نشاط دائم. كما تدل على وجود علاقات ثقافية كانت قائمة آنذاك بين مملكة قطنا والفراعنة وبلاد ما بين النهرين، إضافة إلى العلاقات التجارية مع بلاد البحر المتوسط، بدليل وجود أدوات جنائزية وأشياء متنوعة في المدافن المكتشفة مستوردة من بلاد الرافدين ووادي النيل.





اكتشافات ولقى أثرية فخارية

ويبرز الخلاف الرئيس لمملكة قطنا مع مملكة يمحاض، ووصل الأمر بياريم ليم أن أبدى استعداده لحل الخلاف الذي طال مع قطنا، بشرط أن يحضر ملكها أموت بي أيل إلى حلب، وأن يؤديا القسم الإلهي كدليل على حسن النوايا، وكانت ماري هي المرشحة للتوسط لحل الخلاف. إلا أن الوثائق لاتشير إلى حل نهائي لخلافهما مع يمحاض، مع استمرار العلاقات الودية بين قطنا وماري حتى انتهاء عهد زمري ليم ودمار ماري.

أما أهم المواد المستوردة فكان القصدير المرسل من ماري القادم أصلاً من شمال غرب إيران عبر سيبار أو آشور، ثم تصدره إلى مناطق سوريا الداخلية والساحلية.

وكانت الخيول أهم صادرات قطنا، لوجود سلالات جيدة فيها. وذكرت النصوص أيضاً عربات خشبية قدمت إلى القصر في ماري وجراراً من الخمر وأواني معدنية ذهبية أو فضية.



حلي ذهبية من مملكة قطنا

حرص ملوك آشور على بقاء علاقاتهم جيدة مع قطنا، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وعندما احتاجت قطنا للمساعدة العسكرية ضد مملكة يمحاض أرسلت آشور فرقاً عسكرية من ماري للتمركز فيها.

من المؤكد أن قطنا خضعت للمصريين أثناء الحملات المصرية على سوريا في القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد، إذ تذكر الكتابات المصرية بأن الفرعون أمنحوتب الثاني اشتبك مع

قوات قطنا عند عبوره لنهر العاصي وألحق بها خسائر فادحة.

وبالاعتماد على النصوص المسمارية المكتشفة في القصر الملكي، يتضح أن قطنا وقعت تحت النفوذ الميتاني زمن الصراع المصري_الميتاني على سوريا. وعندما سقطت الدولة الميتانية على يد الحثيين تمكن ملك قطنا من العودة إلى ممارسة صلاحياته، ووضع تحت تصرفه جهاز استخباراتي متطور ساعده على الإطلاع، بأقصى سرعة ممكنة، على أهم التطورات والأحداث السياسية.

وكانت نهاية مملكة قطنا على يد الملك الحثي شوبيلو ليوما (١٣٨٠- ١٣٤٦ق.م) الذي دمرها انتقاماً منها لطلب المعونة المصرية التي لم تصل أصلاً. إلا أن مملكة قطنا عادت إلى الحياة من جديد في العصر الآرامي، في الألف الأول قبل الميلاد، لكنها ما لبثت أن دمرت مرة أخرى ولكن هذه المرة على يد الملك الآشوري شاروكين الثاني في القرن الثامن قبل الميلاد.

بالإضافة إلى الممالك الهامة التي ذكرت سابقاً هناك عدد آخر من الممالك السورية ازدهرت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد مثل مملكة إيمار ومملكة أوغاريت.

مملكة إيمار (مسكنة)

تقع مدينة إيمار على الضفة اليمنى لنهر الفرات، إلى الشرقٍ من مدينة حلب وتبعد عنها حوالي مائة كم، وتعرف حالياً باسم مسكنة. اكتشفت مصادفة في عام ١٩٧١م من خلال اكتشاف رقيم مسماري في الجهة الغربية من الموقع، إضافة إلى بقايا أوانٍ فخارية من الألف الثاني قبل الميلاد، مما دعا البعثةً الفرنسية بإدارة الباحث الآثاري جان كلود مارغرون إلى تبني العمل بالموقع ضمن حملة الإنقاذ الدولية لحوض الفرات.

باشرت البعثة التنقيب في الموقع منذ عام ١٩٧٢م وعثرت على مكتشفات أثرية وشواهد معمارية مدنية ودينية متعددة، إضافة إلى مجموعة من الرقم المسمارية التي اتضح من خلالها أن هذا الموقع هو المكان الصحيح لمملكة إيمار.



مملكة إيمار

استمرت التنقيبات الأثرية في إيمار حتى عام ١٩٧٦م، وتم الكشف خلالها عن أكثر من ألف وخمسمائة رقيم كتبت نصوصها بالخط المسماري ولغات متعددة سومرية وأكادية وحورية وحثية، وتعود إلى الفترة الممتدة من أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد وحتى دمار المدينة عام ١١٨٧ق.م.

لقد كان اكتشاف إيمار حدثاً علمياً هاماً، أبرز العديد من الطروحات الجديدة والمتعددة، كان أهمها البحث في وجود آثار تعود لعصر البرونز الحديث، مع عدم العثور على سويتي عصر البرونز القديم والوسيط، رغم تكرار اسم إيمار في عدد كبير من النصوص والوثائق المكتشفة في بلاد الشام والرافدين. فقد ذُكرت في نصوص إيبلا منذ النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وفي نصوص ماري في القرن السابع عشر قبل الميلاد. وجميع هذه النصوص تؤكد على أنه كان لمدينة إيمار في هاتين الفترتين شأناً كبيراً.

وجد الباحثون في نصوص إيبلا أسماء أربعة ملوك منها الملك أنزي دمو الذي كان معاصراً لملك إيبلا يركب دمو. بالإضافة إلى ذكر الملكة تيشالم التي حكمت بالنيابة عن ابنها والتي قد تكون من أصل إيبلاوي، عشرات المرات في وثائق إيبلا. كما أشارت الوثائق إلى بعض المبادلات التجارية المرسلة من إيبلا إلى ملوك ماري وأهمها الألبسة والمعادن الثمينة.

ولعل دراسة أسماء الإيماريين في النصوص الإيبلاوية

يبين لنا الهوية العرقية لسكان إيمار في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ومن هذه القوائم قائمة قدمها الباحث الآثاري ألفونسو آركي تضم أكثر من مائة اسم بعضهم من سادة إيمار والبعض الآخر من عامتها.

أما وثائق ماري في عهد يخدون ليم وزمري ليم فتذكر، أن مدينة إيمار كانت عقدة مواصلات تجارية هامة بين قطنا وكركميش والفرات. ولابد من الإشارة إلى أن إيمار دفعت في بعض الأحيان أتاوة إلى ملك حلب، وربما أيضاً إلى ملكي ماري وكركميش.

أكدت كل النصوص المكتشفة أن إيمار كانت تحتل موقعاً متميزاً من الناحية التجارية في قلب المدن السورية، وخاصة بين يمحاض وقطنا وكركميش، كما أنها كانت مفتاحاً للعلاقات التجارية بين سوريا وبلاد ما بين النهرين.

أما التنقيبات الأثرية التي جرت في مدينة ماري فقد كشفت عن مجموعة من المباني الدينية والمدنية وفي

مقدمتها القصر الحيلاني أي «بيت النوافذ» الواقع في الجهة الشمالية الغربية المطلة على الوادي. وهو عبارة عن بناء مؤلف من رواق أمامي معمد، يؤدي إلى قاعة تحيط بها الغرف التي تتعدد وتتفرع لتكون قصراً واسعاً. ويعتبر قصر ياريم ليم أقدم نموذج للقصر الحيلاني في ألالاخ، إذ يعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أما قصر إيمار فيعود إلى الفترة الممتدة بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.



حفريات إيمار

مكنت حفريات إيمار من كشف ثلاثة معابد يعود تاريخ بنائها إلى نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبقيت تمارس دورها في المجتمع حتى القرن الثالث عشر، ثم اختفت إثر كارثة حلت بإيمار. اثنان من هذه المعابد بُنيا في أعلى نقطة من التل وهما للإلهان بعل وعشتار، بينما بني المعبد الثالث تقريباً في بداية التلة الجنوبية المستطيلة.

أما فيما يتعلق بطبيعة النظام السياسي الحاكم، فتؤكد وثائق إيمار وجود حكومة ممثلة بالملك بالإضافة إلى عدد من السلطات، منها سلطة المعبد ورجال الدين الذين كانوا يشرفون على الفعاليات الاقتصادية الهامة، إضافة إلى وجود طبقة النبلاء والشيوخ والعامة.

اكتشفت هذه الوثائق في عدة أماكن من إيمار كالقصر الملكي ومعابد الآلهة بعل وعشتار وحدد. إلا أن المعبد M١ احتوى على القسم الأكبر منها، إذ بلغ عدد الرقم المكتشفة فيه ما ينوف على أكثر من ألف لوحة مسمارية، شكلت المحفوظات الإدارية والاقتصادية القسم الأكبر منها، حيث بلغ عددها أكثر من ثلاثمائة

نص دونت جميعها باللغة الأكادية، وشكلت عقود البيع والشراء القسم الأعظم منها. وهذه العقود غالباً ما تكون مرفقة بأسماء البائعين والمشترين والشهود ومصدقة بأختامهم كما هو الحال في الوقت الراهن.

أما المعلومات الدينية فقد وجدت على أكثر من أربعمائة رقيم مسماري أكادي، تمحورت موضوعاتها حول الهبات والنذُر والأضاحي والشعائر الدينية والأعياد. وساعدت في التعرف على أسماء الآلهة وصفاتها ومكانتها ووظيفتها، وأوضحت بشكل كامل دور الكهنة في المجتمع وعلاقتهم مع الأسرة الحاكمة وعامة الشعب. كما أنها لم تهمل ذكر العبادات العائلية، التي تميزت بوجود رمز لها يحظى بالتقدير والاحترام من قبل جميع أفراد الأسرة.

تميزت محفوظات إيمار الأدبية بقلة نصوصها مقابل العدد الكبير من النصوص الإدارية والاقتصادية والرسمية، إلا أن هذه النصوص الأدبية على قلتها امتازت بالتنوع الأدبي وأساليبه، فهناك أدب الحكمة والحكاية والتراتيل والأغاني. وظهر واضحاً الأسلوب

القصصي والمسرحي والعلمي والديني، ناهيك عن وجود نصوص هامة تتضمن تعاويذ لحماية الإنسان من مختلف شرور الحياة، ملبية بذلك حاجاته الروحية والنفسية. وهي عبارة عن مجموعة من الأدعية الموجهة إلى الآلهة لإحلال خيراتها ومنع غضبها.

وهناك مجموعة من النصوص تبلغ خمسة وثلاثين نصاً، تتضمن وصايا شخصية تتعلق بالميراث وتنظيمه بين الأبناء، يقر فيها شخص ما بتوريث ممتلكاته من بيوت وبساتين وأراض وغيرها. ويُلاحظ في هذه الوصايا تقييد تنفيذ الوصية بالرعاية الحسنة للموصي من قبل الموُصى إليه خلال الأيام الباقية من حياته. وإذا ما حصل خلاف ذلك فلا يحق له الميراث، بل يتوجب عليه مغادرة المسكن مباشرة. وكانت الوصايا تُذيل باسم كاتب الوصية والشهود. وقد تحرر بعض الوصايا بحضور وجهاء المدينة وشيوخها أو الملك، وذلك تبعاً لأهمية الوصية والمُوصي.

كانت سلطة الملك محدودة ومقيدة بمجموعة من القرارات التي يصدرها مجلس الأعيان والشيوخ، أما

السلطة الأكثر قوة فهي سلطة المعبد ورجال الدين الذين كانوا يشرفون على أهم الفعاليات الاقتصادية من خلال عدد كبير من الموظفين والإداريين التابعين لهم. أما السلطة الفعلية والقرارات الهامة الحقيقية فإنها لم تكن بأيدي الإيماريين وإنما كانت بيد ملوك كركميش الذين يرجع إليهم حكام إيمار في كل الأمور الهامة، لاسيما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. وإذا ما أردنا توصيف الواقع قلنا أن ملوك إيمار كانوا ولاة ونواباً عن ملوك كركميش.

لم تتوفر معلومات مهمة عن أقدم ملوك إيمار في معظم النصوص المكتشفة على الرغم من كثرتها، وفيما يخص الملوك التاليين فإنها تعطينا بعض المعلومات القيمة عنهم. لقد بدا من الثابت أن أسماء بعض الملوك الذين حكموا إيمار تطابقت مع أسماء ملوك إيبلا، وهذا ما يدل على وجود أسرة حاكمة في إيمار تنتمي إلى الأسرة نفسها التي كانت تحكم في مملكة إيبلا، وهذه الأسرة هي أسرة «دمو» التي ينتمي إليها أربعة من ملوك إيمار.

وفيما يخص فن النحت في إيمار فإنه لم يرقَ إلى مستوى جيد يقارب المستوى الذي بلغه عند جيرانهم. فقد عثر على تمثال في معبد عشتارت يمثل شخصاً جالساً نحت على إحدى حواف حوض خصص للعبادة، وهناك أيضاً جزء من آنية من المرمر الجبسي، زينت بأشكال متنوعة تمثل نساء وطيورا وأشكالاً هندسية.



مكتشفات إيمارية

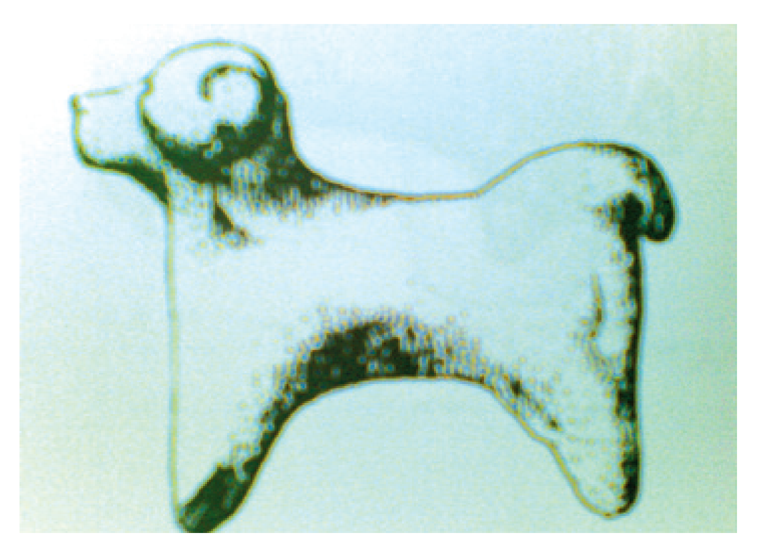
كما عثر في موقع إيمار على صناديق من الفخار مستطيلة الشكل، ترتكز في معظمها على قوائم في زواياها الأربعة. وعثر أيضاً على قطعتين زنرت

جوانبها الخارجية بأشكال زخرفية، مثل الدوائر المنقطة والخطوط المحززة، نحت على إحداها شخص جالس يحمل في يده اليمنى كوب ماء ويقف أمامه شخص يلقي عليه التحية بكل إجلال واحترم.

لقد ساهمت الاكتشافات الأخيرة في موقع إيمار وغيره من المواقع القريبة، في إلقاء الضوء على صناعة التماثيل في هذه المنطقة، وكانت في معظمها مرشومة أو مصبوبة وتمثل دائما نساء عاريات، مضمومة الأذرع إلى الصدر في غالب الأحيان.

إن معظم التماثيل الإنسانية التي تم الكشف عنها في إيمار كانت نصفية، والقليل منها تماثيل كاملة ولكنها أكثر تنوعاً من النصفية، تصور تماثيل مذكرة أو مؤنثة، غالباً ما تكون واقفة وفي أحيان نادرة جالسة أو تمتطي حيواناً . إلا أن الفنان الإيماري لم يهتم بإبراز ملامح التمثال الذي ينفذه واكتفى في معظم الأحيان بتصوير الشكل العام للجسد، وربما كان ذلك بسبب دوره الديني والوقائي.

لم يقتصر فن النحت في إيمار على نحت التماثيل الإنسانية فقط، بل اهتم بنحت التماثيل الحيوانية أيضاً وخاصة منها الثيران التي كانت في غالبيتها ذات حدبة أي ما يعرف بالثيران الدرباني، ولها ما يسمى بالغبغب أي اللحم المتدلي تحت الحنك. أما بقية الحيوانات فكانت في معظمها لأغنام وأكباش وبغال وأُسود بالإضافة إلى بعض العقارب والعصافير.



تمثال حيواني من إيمار

كما وجدت في منازل إيمار مجموعة كبيرة من الدمى الطينية التي استخدمت كتعاويذ تحمي حاملها وتمنع دخول الأرواح الشريرة إلى المنزل الذي توجد فيه.

لقد كانت مدينة إيمار مركز مملكة فراتية صغيرة، لكنها نقطة التقاء حضاري متعدد المشارب، امتدت على الضفة اليمنى لنهر الفرات حتى جبل البشري في الجنوب، ولامست المنطقة التابعة لحلب في الغرب ووصلت إلى كركميش في الشمال عام ١٣٦٠ قبل الميلاد. وتمتعت بأهمية جغرافية كبيرة نظراً لتوسطها بين ممالك أساسية ظهرت في المنطقة خلال فترات زمنية متتالية، مثل الممالك الإيبلاوية والحثية والميتانية، فاستفادت من الحركة التجارية النشطة في مرفئها، الذي كان محطة تربط سوريا الداخلية ببلاد الرافدين ومملكة ميتاني شرقاً، وببلاد الأناضول شمالاً.

وبقيت المدينة ذات موقع تجاري مهم على نهر الفرات حتى داهمتها شعوب البحر عام ١١٨٧ ق.م، وقامت بتدميرها تدميراً شاملاً، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلا في العصر الروماني-البيزنطي حيث تم

بناء مدينة بارباليسوس فوق أنقاض المدينة القديمة، استمرت حتى العصر الإسلامي وعرفت باسم مدينة بالس.

أوغاريت (رأس شمرا)



آثار أوغاريت

تقع أوغاريت على بعد أحد عشر كيلو متراً إلى الشمال من مدينة اللاذقية. اكتشفت مصادفةً عام

١٩٢٨م، عندما اصطدمت سكة محراث فلاح من أهالي قرية رأس الشمرة، بحجارةٍ منحوتة ضخمة، تبين فيما بعد أنها سقف لمدفن أثريٍ عائلي. باشرت السلطات الفرنسية الحاكمة آنذاك بإرسال بعثة تنقيب برئاسة عالم الآثار الفرنسي كلود شيفر.

توجه شيفر مع فريقه العلمي إلى الموقع ومعه كامل معداته على قافلة من الجمال، حسب ما ذكر في التقرير الأول عن أعمال التنقيب، وذلك لتعذر الوصول إليها بالسيارات.

كان أول ما اكتشف في الموقع خنجر برونزي من القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد، ووجد بعد ذلك أساس معبد الرب بعل إضافةً إلى بعض الأسلحة والأدوات البرونزية، وبقايا قصر عرف أنه آثار قصر مملكة أوغاريت، المعروفة في الوثائق الحثية والمصرية والرافدية. كما ورد اسم أوغاريت في نصوص مملكة ماري، حيث تذكر النصوص أن الملك زميري ليم قام بزيارةٍ أوغاريت في العام ١٧٦٥ ق.م. وذُكرت أوغاريت أيضاً في النصوص الحثية المكتشفة في الأناضول

وسورية ورسائل تل العمارنة المكتشفة في مصر. وتبين من الحفريات أن أوغاريت كانت عاصمة لمملكة بلغت مساحتها ٥٤٢٥ كم مربع تقريباً في القرنين الخامس عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وهي فتر ازدهار المملكة.



أبجدية أوغاريت

كان العثورعلى رقيم أوغاريتي مكتوب بحروف مسمارية، عرف فيما بعد بأنها أبجدية أوغاريت، تعود إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، من أهم الاكتشافات في العالم إذ اتضح فيما بعد أنها تمثل أول أبجدية في العالم، وتتألف من ثلاثين علامة مسمارية فقط.

اعتبر هذا الاكتشاف في حينه قنبلة علمية لأنه أثبت أن الأبجدية الفينيقية المذكورة هي أصل الكتابة الأوروبية القديمة اليونانية واللاتينية. وهنا لا بد من التذكير أن أولى الكتابات في التاريخ الإنساني، ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد في العهد السومري وبالذات في حاضرة أوروك عام ٣٢٠٠ ق. م.

أما محتوى نصوص أوغاريت فهو متنوع، اقتصادي وإداري وسياسي وأسطوري وديني وشعري. وبالتالي وفرت هذه الوثائق إمكانية التعرف بشكل جيد على حياة الأوغاريتيين في فترة ازدهارهم، أي خلًال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

وقد بينت الحفريات والأسبار الأثرية أن موقع رأس شمرا سُكن منذ الألف السابع قبل الميلاد. إلا أنه مع حلول الألف الثاني قبل الميلاد، ازداد الاستيطان فيه، وشكل مملكة أوغاريت.



رأس أميرة أوغاريتية

منذ نهاية القرن السادس عشر، أصبحت مدينة أوغاريت المركز الحضاري الأهم في بلاد الشام، وبقيت كذلك حتى تدميرها عام ١٢٠٠ق.م. وقد تعاقب على حكمها تسعة ملوك كان من بينهم عم شتمر، وأبرزهم نقم هدد الثاني، الذي عقد معاهدة مع الحثيين.

كانت مدينة أوغاريت محصنة، تنتشر فيها المعابد والقصور والبيوت على جوانب شوارعها المستقيمة الرئيسية والفرعية. وقد اكتُشف في المدينة القصر

الملكي والمعابد، كمعبد الإله بعل ومعبد الإله دجن. هذا بالإضافة إلى مسكن كبير للكهنة وجدت فيه الرُقم، التي كُتبت عليها أساطير الأدب الكنعاني وأشعاره، كما وجد أيضاً العديد من المدافن، التي بنيت بأسلوب واحد، وهو عبارة عن حفرة تحت أرض القصر أو البيت، بنيت حجرة الدفن على شكل هرمي أو مخروطي. ومن أهم هذه المدافن، مدافن القصر الملكي والقصر الصغير.



تحفة أوغاريتية

إن البحر الذي كان نعمة على مملكة أوغاريت ، وفسح أمامها مجال التجارة العالمية، كان نقمة عليها، إذ وفد منه محاربون غامضون أطلق عليهم اسم «شعوب البحر»، قاموا بإحراق المدينة عن بكرة أبيها ١١٨٠ق.م. ولم ينج منه إلا الرقم التي حُفظت بشكلٍ جيد بعد شيها بالنار، وكان هذا من حسن حظ البشريةً جمعاء.

إن كل الممالك التي سبقت هي غيض من فيضٍ الحضارة السورية التي أشعت علماً ومعرفةً ومدنيةً، منذ فجر التاريخ وحتى الآن.

صدر من السلسلة

نحن جزء من هذا الكون	فايز فوق العادة
دمشق	محمد قرانيا
الأشرعة الحمراء (ألكسندر غرين)	ت:فيروز نيوف
مملكة ماري	ت:قاسم طوير
مختارات من أسامة	
القدس	د.هشام الحلاق
الذرة	حسن بلال
العلم يدهشنا	فايز فوق العادة
مملكة إيبلا	أنطوانيت القس
البيئة: الطبيعة والإنسان	طـه الزوزو
قصة الكون والحياة والإنسان	موسى ديب الخوري
ربيع كاذب	عبد الله عبد
صفحات من تاريخ الموسيقا	محمد المصري
الأمير الصغير	(أنطون دوسانت أكزوبيري) ت: أنطوانيت القس
قصة اختراع الأرقام	موسى ديب الخوري
الصوت والزمن	د. غزوان زركلي
حشرات في بيتك وحديقتك	هنادي زرقة

طريق الحرير	د. ريم منصور الأطرش
الحاسوب	أويس الشريف

فلزات (سليكون/كوارتز/حرير صخري)

أ.د. محمد عبود

الثقوب الكونية السوداء	فايز فوق العادة
الفسيفساء	موسى ديب الخوري
فن النحت «في العصر القديم»	د. تغريد شعبان
التلوث النفطي	د. محمد عبود
المحميات الطبيعية	هنادي زرقة
مختارات من حكايات إيسوب	رسوم ضحى الخطيب
حيوانات المروج والغابات	محمد مروان مراد
قصة اللاسلكي	جهاد سلامة الأشقر
أوغاريت	موسى ديب الخوري